الدرس السادس

(المتن)

وأما الشرك في الإرادات والنيّات: فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، فمن نوى بعمله غير وجه الله – تعالى – فلم يقُم بحقيقة قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} ، فإن {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} هي الحنيفيّة ملّة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، فاستمسك بهذا الأصل، ورد ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه تتحقق معنى الكلمة الإلهيّة.

(الشرح)

هذا كلام نفيس، وهو أن ما تقدم من ذكر الشرك في الأفعال وفي الألفاظ أمر مدرك تشاهده الأعين، وتسمعه الآذان، فيمكن معرفة وقوع العبد بلون من ألوان الشرك، وإنما البحر الذي لا ساحل له كما وصف هو ما يقوم في القلوب من الإرادات والنيات، ذلك أن القلوب في الصدور، والعلم بما يقوم في القلوب من إرادات ونيات لا يعلمها إلا الله ﷻ، فكم من إنسان قد ضبط أفعاله الظاهرة وألفاظه الناطقة ولكنه وقع في شرك الإرادة والنية، فلم يتمحض لله تعالى محبة وخوفا ورجاء وتوكلا وغير ذلك، وقل من ينجو منه؛ لأن تجريد التوحيد في هذا المقام يحتاج إلى ممارسة ومجاهدة وإلى صبر على الابتلاء.

فلأجل ذلك كان الناجون منه قليل، فمن نوى بعمله غير وجه الله – تعالى – لم يقُم بحقيقة قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، فإن {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} هي الحنيفيّة ملّة إبراهيم، وهي تحقيق الإخلاص لله ﷻ في كل ما يأتي وما يذر، بحيث لا يتحرك قلبه إلا ابتغاء وجه الله ﷻ، وهذا أمر يعز حصوله إلا عند من جاهد نفسه، وبلغ بها مراتب المحسنين، {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩]. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

والنفس لها حظوظ ولها نزعات، فمن هذبها بالإيمان وقمع شهواتها وألزمها كلمة التقوى جاز القنطرة، وصار هواه تبعا لما جاء به محمد ﷺ، وهذا هو تحقيق مقام: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، وتأملوا كيف أن الله تعالى قدم (إياك) على (نعبد) لدلالة على الحصر والاختصاص، فالعبودية خالصة له ﷻ.

وملة إبراهيم عليه السلام هي التوحيد، فإن إبراهيم عليه السلام إنما اجتباه ربه واصطفاه لأنه أخلص التوحيد لله تعالى، فجعل الله تعالى له ذكرا في العالمين وصار التوحيد ينسب إليه، فإبراهيم عليه السلام ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن، وابتلاه ربه ﷻ بأن عرضه على النار المحرقة لينظر أيصبر في ذات الله أم لا، فصبر حتى إنه لما ألقي من رأس الجبل كما في

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

بعض الروايات في النار التي أضرمها قومه عرض له جبريل فقال له: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، ومن يقوم في قلبه هذا لتوحيد في أشد الساعات وأحلك الأوقات إلا من أخلص قلبه لله تعالى، وكان يقول: (حسبنا الله ونعم الوكيل). عن ابن عَبَّاسٍ، قَالَ: (كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ)[1].

وكما ابتلاه ربه بالمكاره ابتلاه بالمحبوبات، فلما أحب ابنه الذي جاءه على كبر محبة عظيمة جدا أراد الله أن يبتليه فأراه في المنام أنه يذبحه، ورؤيا الأنبياء حق، فتلطف في عرض هذا على ابنه: {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى} [الصافات:١٠٢].

لم يكن يقصد ﷺ أن يأخذ موافقة منه، وإنما تلطف في العرض، فما تدري أتعجب من الأب أم تعجب من الابن، {قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات:١٠٢]، ولا ريب أنه جرى من المعاناة النفسية شيء لا يوصف، حتى بلغ الأمر ما قال الله ﷻ: {فَلَمَّا أَسْلَمَا } [الصافات: ١٠٣]، هذه حقيقة الإسلام، يعني استسلما لله ﷻ، وقدما محاب الله على محبة نفسيهما، {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [الصافات: ١٠٣]، كما يصنع من يريد أن يذبح الشاة يتل جبينها ليمر السكين على حلقها، وما بقي إلا التنفيذ، جاءه الفرج، {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} [الصافات:١٠٤-١٠٥].

هكذا يكون التوحيد، فلما علم الله منه ذلك جعله إماما، {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل:١٢٠] أمة يعني إمام، كان إماما في التوحيد، وجعل الله الإحالة في الملة إلى إبراهيم، كما في قول الله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل:١٢٣] {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران:٦٧]. {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة:١٣٥].

فهي ملة معروفة مبنية على التوحيد لرب العالمين، فهذا النوع يقع في القلوب ولا يطلع على ما في القلوب إلا علام الغيوب ﷻ وإذا صح ما في القلب من توحيد وإخلاص فالجوارح له تبع، فإن بيت الرب في العبد هو القلب، كما أن بيت الرب في الأرض هو الكعبة، والله تعالى لا ينظر إلى صورنا ولا إلى أجسامنا ولكن ينظر إلى قلوبنا، فإذا كان القلب هو محل نظر الرب من العبد فهو حري بأن يكون أطهر ما فيك وأنفس ما فيك.

(المتن)

(1) أخرجه البخاري- (٤٥٦٤).

فإن قيل: المشرك إنما قصد تعظيم جناب الله – تعالى –، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلاّ بالوسائط والشفعاء، كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبيّة، وإنما قصد تعظيمه، وقال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، وإنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه، وتدخل بي عليه، فهو الغاية، وهذه وسائل، فلم كان هذا القدر موجبا لسخط الله – تعالى – وغضبه، مخلداً في النار، وموجبا لسفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم وأموالهم؟، وهل يجوز في العقل أن يشرع الله – تعالى – لعباده التقرّب إليه بالشفعاء والوسائط، فيكون تحريم هذا إنما استفيد بالشرع فقط، أم ذلك قبيح في الشرع والعقل، يمتنع أن تأتي به شريعة من الشرائع، وما السر في كونه لا يغفر من بين الذنوب، كما قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء:٤٨]؟؟.

(الشرح)

هذه مسائل، رتبها الشيخ على هذا النسق الذي أورده المشركون يقول قائلهم: إنما قصدنا بهذا تعظيم جناب الرب، وكون الرب عظيما لا ينبغي أن يدخل عليه مباشرة، بل ينبغي أن يتوسط إليه بالوسائط، كما السلاطين والملوك والأمراء لا يدخل عليهم إلا عن طريق الوزراء أو من دونهم فالرب أعظم جنابا فينبغي أن يكون بيننا وبينه وسائط وهم الشفعاء، فجعلوا الشفاعة عند الله ﷻ كالشفاعة عند ملوك الدنيا، هذا التشبيه هو الذي جرهم إلى الوقوع في الشرك.

رتب الشيخ على هذه الدعوى ثلاثة أسئلة:

١. لَمَ كان هذا القدر، يعني هذه الدعوى التي يحتج بها المشركون موجبة لسخط الله ﷻ وغضبه ومخلدة أصحابها في النار ومبيحة لدمائهم واستباحة حريمهم وأموالهم؟.
٢. وهل يجوز في العقل أن يشرع الله تعالى لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استفيد بالشرع فقط أم ذلك قبيح في الشرع والعقل؟ يعني هل يكفي فقط أنه محرم بالشرع؟ هل العقل ينفيه أم يؤيده؟
٣. وما السر في كونه لا يغفر من بين الذنوب؟.

هذه المسائل الثلاث سيتأخر الجواب عنها إلى ما بعد عدة صفحات، وهذا مما لاحظناه في مستهل هذه الرسالة أنه مما يستدرك أن يتأخر الجواب عن الشبهة، ولا يأتي مباشرة، بل قدم له بمقدمات.

(المتن)

قلنا: الشرك شركان:

شرك متعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه وتعالى لا شـــريك لـــه في ذاتـــه ولا في صفاته.

(الشرح)

هذان نوعان من الشرك، شرك متعلق بذات المعبود، هذا هو الشرك العلمي، النوع الثاني: ما يتعلق بعبادته ومعاملته، وهذا هو الشرك العملي.

(المتن)

وأما الشرك الثاني وهو الذي فرغنا من الكلام فيه، وأشرنا إليه الآن، وسنشبع الكلام فيه إن شاء الله – تعالى–.

(الشرح)

يشير إلى ما تقدم من الكلام من السجود لغير الله والطواف بغير بيت الله وتقبيل غير الحجر الأسود تقربـــا لغير الله وحلق الرأس ودعاء أصحاب القبور وغير ذلك من أنواع الشرك العملي.

(المتن)

أما الشرك الأول: فهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون في قوله: {وَمَـــا رَبُّ الْعَـــالَمِينَ} ؟، وقال: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّـــي لأَظُنُّـــهُ كَاذِباً}، والشرك والتّعطيل متلازمان، فكل مشرك معطّل، وكل معطّل مشرك، لكن الشرك لا يستلزم أصل التّعطيل، بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وتعالى وصفاته ولكنه معطّله حق التّوحيد.

(الشرح)

هذا من الشرك الأول الذي هو الشرك العلمي، فجعل أحد نوعيه شرك التعطيل، و التعطيل: مأخوذ مـــن العطل وهو التفريغ والأخلاء، كقول الله تعالى: {وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ} [الحج:٤٥] يعني لا ماء فيها، وكما نقول عطلة صيفية أو عطلة نهاية الأسبوع، لخلوها من العمل و الدراسة، وكما تقول العرب: امرأة معطال إذا استغنت عن الحلي لجمالها.

وكما يقول المتنبي:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

يعني: لا تستغربي خلو الكريم من المال، فالسيل حرب للمكان العالي، ذلك أن الرجل الكريم كلما وقع في يده مال فرقه يمينا وشمالا كما أن الجبل إذا وقع عليه المطر سح عنه يمنة ويسرة، فهذا أصل كلمة التعطيل في اللغة تعني الخلو والتفريغ.

و يمكن أن نقسم التعطيل إلى درجات:

١. أشد أنواع التعطيل هو تعطيل الوجود، أي إنكار وجود الرب ﷻ، كقول فرعون: وما رب العالمين، وكل من وافقه في إنكار وجود الخالق ﷻ من الملاحدة.
٢. تعطيل القرامطة، وهم القائلون بنفي النقيضين، الذين ينفون الشيء ونقيضه، فيقولون لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت وهؤلاء أنكروا البدهيات، فهم يقولون: نحن ننفي النفي وننفي الإثبات، ننفي النفي حتى لا نقع في تشبيهه بالمعدومات، وننفي الإثبات حتى لا نقع في تشبيهه بالموجودات، وما دروا أنهم وقعوا في تشبيهه بالممتنعات حينما يقولوا لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل الخ، فهو مذهب ظاهر الكفر والبطلان.
٣. تعطيل الجهمية، وهم الذين يثبتون وجودا مطلقا بشرط الإطلاق، يعني لا يتقيد باسم ولا صفة، فلا يقولون: هو سميع ولا بصير ولا عليم ولا قدير، ولا يقولون: له سمع وبصر وعلم وقدرة، هذا تعطيل الجهمية الذين أجمع أهل السنة على تكفيرهم؛ لأنهم جعلوا الله تعالى مجرد فكرة في الأذهان، لا وجود له في الأعيان.
٤. تعطيل المعتزلة: الذين يثبتون الأسماء لكنهم يفرغونها من دلالتها على الصفات، فيقولون: هو سميع وبصير وعليم وخبير، لكن سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعليم بلا علم، قدير بلا قدرة، فيثبتون أسماء مجردة عن الصفات، هذه أربع مراتب من مراتب التعطيل الكلي.

ثم بعد ذلك تعطيل جزئي، وهو ما وقع لبعض أهل الإثبات، كالأشاعرة والماتريدية والكلابية وأتباع أبي العباس القلانسي وأتباع الحارث بن أسد المحاسبي، الذين يسمون بالصفاتية، هؤلاء الصفاتية الأصل فيهم الإثبات، لكن التبست عليهم بعض شبهات المعتزلة و لم يهتدو لردها، فأدى بهم الأمر إلى أن يثبتوا الصفات المعنوية، وينكروا الصفات الفعلية كالاستواء والنزول والصفات الخبرية كالوجه واليدين، وبهذا تبين لكم أن التعطيل على درجات، وأن ما حكاه عن فرعون هو أقبح أنواع التعطيل.

والشرك والتّعطيل متلازمان، فكل مشرك معطّل، لأنه عطل الله ﷻ من كماله المستحق له حيث أشرك غيره معه.

وكل معطّل مشرك، لم يبين ما وجه كون المعطل مشركًا، ووجهه أنه إذا عطل هذا الوصف عن الله فقد نسبه إلى غير الله، فيكون بذلك مشركا، والله أعلم.